زاهية او ضحيّة الأَزياء (المودا)

رواية تاريخيّة بقلم الاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

رجعتُ رأدَ الضحى من اليوم التالي وكان ذلك النهار من ابهج أيام الربيع فان الشمس بعد انحجابها في الأيام السابقة كانت بدَّدت عنها الغيوم فأحيت مَوات الطبيعة بأشعّتها الذهبيّة ونورها الساطع

فسألتُ رئيسة المستشفى عن حال الفتاة وما رأي الطبيب في مرضها . فاجابت : لم يبدُ حتى الآن املٌ اكيد في شفائها فان صدرها لا يزال في غاية الضعف إلّا أنّنا وجدناها بعد زيارتك لها اسكن جأشاً وارقّ طبعاً

فدخلتُ عليها فرأيتها راخية البال هادئة الحال . فلمّا شاهدَتني بدت ابتسامة على ثغرها . كأنها منتظرة قدومي لتسرّي عنها وتكشف ما يكنُّهُ قلبها

ولما سألتُها عن رقادها انلتِ في نومها راحةً ؟ قالت : لم اكد انام إلّا غرارًا على اني وجدتني الساعة أروح جسمًا

ثمّ دعتني الى الجلوس بقرب فراشها واخذت تقصُّ عليّ اخبار حياتها فقالت :

اصل زاهية ومنشأها

« ولدتُ في طرابلس في اوّل سنة من العصر الحاضر ١٩٠٠ . ابي اسعد روحانا كان يتعاطى تجارة الحرير وهو من الطائفة المارونيّة لا أكاد اتذكّر له شيئاً سوى حمله لي على ذراعيهِ وتقبيلهِ أيّاي بكل شوق مع كلمة كان يردّدها عليّ ولم ادرك معانيها : صانكِ الله يا ابنتي من شرور هذا الجيل . وما لبث ان توفّي فلم اشعر بوفاتهِ إلّا انّي كنتُ اطلبهُ باسم «البابا» ولا اراهُ . وكان عمري يوم وفاتهِ قريباً من ثلث سنين

« اما امّي فهي من طائفة الروم تبعت رجلها في طقسهِ ولم تعبأ كثيرًا بواجبات الدين اذ انها كانت قضت حياتها قبل زواجها في وسط قليل الاكتراث بامور العالم الآخر

«وكان والداي دعواني باسم «سلطانة» فكان الاسم وانا لا افهم معناه مجلبة للعُجب بنفسي اذ يعظمه الذين يفدون الى بيتنا ويشيرون اليّ باني ابنة شريفة وعلوّي من جرّاه بحيث صرت منذ نعومة اظفاري اتكبّر واتجبّر واعتبر نفسي فوق بقية الفتيات

«وبعد وفاة والدي اخذتْ والدتي وانا وحيدتها تدلّلني ولا تسمعني الا كل كلمة تزيد عنفواني . فكنتُ اذا خطر على بالي شيء او رأيتُ في يد غيري فاكهة او حلوى او لعبة اطلبها بكل صلف . وان لم أُعطَ طِلبتي املأ البيت صراخاً ولا تجترئ امي على ان تزجرني خوفاً منها ان أحمرّ ويصيبني من ذلك ضررٌ لصحّتي . فكنتُ في البيت سلطانةً بالاسم والفعل واعدُّ اهل البيت كلّهم كخدَمي وعبيدي

«ولمّا ترعرعتُ البستني امي من الثياب افخرها وحلّت اذني وزندي ورجليّ بالحلق والاسوار والخلاخل فزادني كل ذلك رعونةً وعجرفةً . وكنت اذا اجتمعتُ باترابي اتحكّم عليهنّ وأعاملهن بكلّ شراسة وفظاظة فصرنَ يمقتنني ويبتعدنَ عني

«بلغتُ التاسعة من عمري فرأت والدتي ان تُراقب ما يشيع من الازياء المستحدثة لتجريها عليّ وأملها من فعلها ان يخطبني احد كبار الرجال فيصير لها بذلك شهرة بين الناس . وكانت ادخلتني مدرسةً علمانيّة فبقيت فيها ثلث سنوات تعلّمت بأثنائها القراءة وأقبلتُ على درس خياطة الازياء كما كانت تحضّني امي على ذلك وتوصي به معلّمتي

«امّا اخلاقي فقلّما تحسّنت . وما كنتُ ارى في المدرسة اثرًا للدين والادب الصحيح وكانت رفيقاتي من اديان مختلفة بنات نصارى ومسلمين ويهود ونُصَيريين لا يكترثن لصلاة ولا يخطر على بالهنّ ذكر شيء من امور الدين . وكانت المعلّمات لا يحدّثنهنّ بغير امور العالم واباطيله وفخفخته

فبقيت في تلك السنين جاهلةً للفرائض الدينيّة ولولا احد الكهنة كان صديقاً لوالدي ولاحد اعمامي لبقيتُ دون التقرّب للمناولة الاولى . فكان لهذا الفعل الديني بعض التأثير في قلبي وانْ لم استعدَّ له استعدادًا كافيًا

زاهية في اول ظهور الازياء الخلاعيّة

إلّا ان ذاك العمل كان اشبه بالزرع الحسن بين الاشواك وانا لا اجد حولي غير

الامثال الباطلة التي تلهيني عن الحياة التقويّة والمعيشة الفاضلة . فما عُمتُ ان رجعت الى خزعبلاتي وامي تجاريني عليها وتنفق فيها ما تركهُ ابي من ثروتهِ . بل اشتركت باحدى المجلات المصريّة التي كانت تخصّص قسماً كبيراً من صفحاتها لوصف الازياء والمودات الاوربيّة وتصويرها

﴿المشدّ والقبعة﴾ وكان اوّل ما كستني بهِ المشدّ (الكورسه) لتظهر بهِ على قولها رشاقة قامتي ولطف صدري . فكان لي كالقفص يضغط جسمي ويذيقني الآماً شديداً لكني كنت اصبر عليهِ ليستحسن الناس منظري . وكانت جعلت على رأسي قبعةً كبيرة واسعة الاطراف مزدانة بالزهور وبالشرائط المتلوّنة

« فسرتُ يوماً في ساحات المدينة واذا بريح شديدة هبّت فاطارت القبعة عن رأسي فركضتُ محتارةً في امري ولست استطيع لضغط المشدّ على جسدي ان انحني لآخذها . فكانت تطير امامي وانا وراءها حتى سقطتْ في قناةٍ مملوءة ماء ووحلاً . فاتّسختْ وتدعّكت وانا لا اتوصّل اليها واذا بكلب مرَّ هناك شاهدها واصطادها وعدا بها راكضاً فصرختُ : قبعتي قبعتي ! فرحمني بعض اهل السابلة واوقفوا الكلب وانتشلوا منهُ القبعة واذا هي في اسوإ حالة وكان كل من يراها على رأسي يقهقه سخراً مني فخجلتُ ايّ خجلٍ . واسرعت فركبت عجلة ورجعت الى بيتنا فشاع الامر وصرتُ اضحوكة في كل الحيّ

﴿القسطان الضيّق﴾ ثمّ ظهر زيّ القساطين الضيّقة فاستجلبتها امي واقنعتني ان أتزيّا بها فكنت لا اكاد اخطو خطوةً إلّا واتمرقل بسيري . على اني بعد ما حاولت الجهد اعتدتُ المشي في الطرق الممهّدة السَاوية ولكن كنت اذا قصدت صعود الدرج او زلقّت رجلي في بعض الحفرات لا اعرف كيف أصعد او أتحرّك

« وانا في تلك الملابس اذ ارسا في ميناء طرابلس سنة ١٩١٢ مركبٌ فرنساوي كبير فدعاني بعض الاصحاب لأرافقهم تزور هذا المركب . فسرت فرحةً إلّا انني لمّا حاولت النزول في القارب (الشختورة) ما امكنني الامر حتى جاء احد النوتيّة وحملني ورماني فيهِ ثمّ تعذّبت ايّ عذاب لاصعد درج المركب حتى اني لم ابلغ ظهره حتى تخرّق القسطان فاستولى عليَّ الخجل امام الركّاب حتى أتاني رجلٌ من رفقتي وغطّاني بعباءتهِ فعلا الاحمرار وجنتيَّ وكنت فضّلتُ لو ساخت بي الارض ولا يراني اصحاب المركب

والزوّار بهذه الحالة

﴿ازياء الشعر﴾ وكانت امي تصرف الساعات لتهندسني وتخترع كل يوم طريقة جديدة لتجدل شعر رأسي فتارةً تجعلهُ طرّة وتارةً تفرقهُ فوق جبيني وحيناً تمقصهُ جدائل وحيناً تنفشهُ فيراني الناس ويتعجبون من هذه الاختراعات فيتغامزون بي . وكان صغار المدارس واوباش البلد اذا لقوني نتفوا شعري او ذرّوا عليه تراباً واقذاراً

﴿المسحوقات﴾ وكانت امي لا تكتفي بما خوَّلني الله من الجمال الطبيعي بل تدور على العطريين فتبتاع ضروب المسحوقات والذرور لتطلي بها وجهي وادّعت انَّ ذلك لمَّا يستحسنهُ في الشبان فسخت وجهي بأخلاطها . وقد اخذتني في احد الايام الى نادٍ اجتمع فيهِ الناس لحضور الفانوس السحري وكان ذلك اليوم احد ايّام الصيف والنادي غاص بالحضور فكان العرق يسيل من كلّ جبين . اما أنا فصار عرقي يتزج بذاك المسحوق (البودرا) ويجري على عارضيَّ فشوَّهني بأعين الحضور فاستغربوا ضحكاً لنظري . ولم يكن هناك ماء اغسل بهِ وجهي فبقيت ساعةً ومنديلي بيدي استر بهِ وجهي فتحمّلتُ مشقّةً لا توصف وظهرت لي تلك الساعة كأنها سنة . ولم تنجُ امي من سخريّة الناس بسببي

﴿الاحذية العالية الكعب﴾ ومن الازياء التي اخذ البعض يشيعونها في تلك السنين الكندرةُ العالية الكعب . فاسرعت امي والبستني ايّاها فكنت لا ادري كيف استقيم عليها ساويةً . واذا مشيت كنتُ محتارةً لاحفظ التوازن في استقامة جسمي فاميل تارةً الى اليمين وحيناً الى الشمال لئلّا اسقط . ومررتُ يوماً في احد اسواق طرابلس المبلَّطة فزلقت رجلي وسقطتُ على الارض على طولي لا استطيع حراكاً لأن رجلي انفكشت (انخلعت) بسقوطي وحملني احد اشخاص الدرك الى البيت فبقيت شهراً في الفراش حتى جُبرت العظام وامكنني ان اقوم وامشي . فلعنتُ مراراً الازياء ومخترعيها . إلّا ان ذلك ما كان ليحوّل فكر والدتي عن تزييني بها وانا لجهلي اطاوعها لاني بذلك على قولها انال لي مستقبلاً حسناً

وقفت زاهية عند هذا وتنهّدت الصعداء فعرفتُ انها ناقمة على تلك الوالدة الجاهلة التي بدلاً من ان ترشد ابنتها وتصونها من سفاسف العالم وترّهاتهِ كانت على خلاف ذلك تعرضها لمخاطر جمة كان من شأنها ان تفقدها عفافها وتطوّح بها في

ردغة الاثم

فالتفتُّ اليها قائلاً: كفاكِ اليوم فاني اخاف ان طول الكلام يضرّكِ ويتعبك فاستريحي الآن وان شئتِ ان تواصلي حديثكِ تتمميهُ في يوم آخر

قــالت: نعم يا ابتِ اني اشعر بفتح قلبي تعزيةً فكأني امجُّ من فيَّ بلغماً او سُمّاً يقتلني. فارجوك اذن ان تأتي بأقرب وقت وتسمع بقيَّة حديثي وان كانت ساعة وفاتي قد قربت تمدُّني لاستقبال الديَّان براحة وطمأنينة

قلت: انّي ذاهبٌ لاقدّم صلاتي الى الربّ لاجلكِ فشاركيني بالنيَّة واطلب الى الله ان يكشف عنكِ كلّ همومكِ ويودع في قلبكِ الندامة على ما فرط منكِ في حياتكِ السابقة فانهُ تعالى قريبٌ من التائبين لا يريد موت الخاطئ بل ان يعود اليهِ مُنيباً فيحيا برحمتهِ ويعيش بنعمته (لها بقية)

حياة الرسالات الكاثوليكيَّة

بقلم حضرة الاب فردينان توتل اليسوعي

وُصف في المشرق (حزيران ١٩٢٦ ص ٤٦٩) مؤلفاتٌ ينشرها في مدينة لوفان البلجكية نخبة من رجال الدين والعلم تنقيباً عن آثار المرسلين العظام واذاعةً لاخبارهم واعمالهم وفيها من الافادات الجمّة ما يجعلها تحفةً للعلماء وعبرةً لذوي التقى وفخراً للكنيسة

ومن هذه المؤلفات الموصوفة كتاب يحوي زهاء ٦٠٠ صفحة وضعهُ الاب برندس آرنس اليسوعي بالالمانية ثم نُقل الى الافرنسية. ومؤلفهُ الخبيرُ دليل اطّلع على احوال الرسالات الكاثوليكية فيصف اداراتها ويحصي عدد عَملتها واقاليمها وما تقتضيه سنوياً من النفقات الضرورية لحياتها ونموّها وما تجدهُ في كرم المؤمنين وسخائهم من الحسنات التي تؤهّلها لسد عوزها ومباشرة مشاريعها الخطيرة وتنجيحها على الرغم من المشاكل التي تحول دون القيام بمهمتها

فلدى اطّلاعنا على هذا التأليف الجليل احببنا ان نفيد قرّاء المشرق عن بعض مضموناتهِ الجليلة بالخلاصة الآتية